اللغة العاميّة واللغة الفصحى

(تابع لما في الجزء السابق)

واما الامر الثاني وهو قصور الفاظ اللغة عن أداء الاغراض العلمية والصناعية وسائر المواضعات العصرية فمما لا خلاف فيهِ ولا ينكرهُ او يستخف بحاجتنا الى تداركهِ الاَّ من غابت عنهُ احوال العصر ولم يرَ من الكتب الا ما انتهى الينا من بقايا صحف الغابرين ولم يعلم من الشؤون الاجتماعية الا ما يقرأهُ في جرائد الاخبار وكتب الروايات . ولو تسنى لبعض ادبآئنا ان يقرأوا شيئاً من المجلات العلمية التي تصدر تباعاً من الآفاق الاوربية والاميركية او يتصفحوا كتاباً من الكتب العلمية او الصناعية في احدى لغات اولئك الاقوام ويروا ما هنالك من غرائب المصطلحات التي لم يمرّ طيفها بخلد احدٍ من واضعي لغتنا ولا نجد فيما وضعوا لفظاً يعبَّر بهِ عن شيءٍ منها لارتفع لهم شيءٌ من ذلك الحجاب ولعلموا ان ما يتعللون بهِ من الدعاوي الفارغة يموّهون بها على انفسهم وعلى القرآء ليس الاضرباً من التغرير والاستسلام للقدر حتى يقضي قضآءهُ على ايديهم ويتخذهم اعواناً على انفسهم وعلى بلادهم . بل حسبُ من ذهب بهِ الغرور هذا المذهب ان يزور احد باعة البضائع الافرنجية ويسألهُ عن اسمآئها ثم ينظر بمَ يسميها من اوضاع لسانهِ بل حسبهُ ان يدخل ردهة منزلهِ ويتفقد ما فيها من المرافق وادوات الزينة ثم ينظر هل يجد لشيءٍ منها اسماً عربياً . فان قال ولكن هذه من مصنوعات الاجانب وُلدت عندهم وسُمّيت بألفاظهم قلنا فهل وُلدت ألسنتنا عندهم ايضاً والا فأين ما ندعيهِ من اتساع لغتنا ووفرة موادّها وصلاحيتها لتمثيل كل ما يراد من

المعاني . على ان كل جديدٍ اليوم يأتينا من عندهم فان سمينا كل ما نتناولهُ عنهم بلفظهِ الموضوع في لسانهم فعلى لغتنا السلام وحينئذٍ فلا نقف عند حدّ استبدال اللغة العامية من الفصحى ولكن تصبح لغتنا خليطاً من العربية وسائر اللغات الافرنجية على ما تقدمت لنا الاشارة اليهِ وعلى ما نرى مثلهُ اليوم في الاحاديث اليومية حتى في لغة الفلاّح اذا سمّى بعض ادواتهِ فضلاً عن المباحث العلمية

على ان دعوانا اتساع اللغة مما لا ينكرهُ علينا منكر ولكن معنى اتساعها أن في اوضاعها ما يتسع لأن يشتقّ منهُ الفاظٌ لما شئنا من المعاني لا أن كل معنىً لهُ لفظٌ موضوع لان اصحاب اللغة لم يتنبأوا بما سيحدث بعدهم من المسميات حتى يضعوا لها اسماءً قبل وجودها . ولذلك لا بد لنا من النظر في وضع ما لم يضعوهُ واستدراك ما فاتهم مما حدث في العصور المتأخرة ولا يكفينا في هذا المقام ان نقول ان لغتنا كانت في بعض ما مرّ بها من العصور لغةً علمية فان العلم اليوم غير العلم في الزمن الاول فهو لا يُتلقى عن الاولين تلقّي الاقوال المُنزَلة فضلاً عن ان يبقى محصوراً في الحدود التي بلغوا اليها ولكن هذا العصر عصر بحثٍ وتنقيب وقد انقلب فيهِ العلم وتبدلت حقائقهُ ومصطلحاتهُ حتى لم يبقَ مما قررهُ الاولون الا رسومٌ واطلال فضلاً عما احدث المتأخرون مما لم يكن للسابقين بهِ عهد . وهذا قانون ابن سيناء المشهور كان يُعتبَر الى زمنٍ قريب مجموع العلوم الطبية بأسرها وكان اليهِ مرجع جميع الاطباء والمصنفين في الشرق والغرب ومن زاد عليهِ شيئاً لم يتعدّ شرح بعض مسائلهِ أو اختصار بعض فصولهِ ومثلهُ كتاب المجسطى لبطلماوس في

علم الهيئة وكتب ارسطاطاليس في الفلسفة ولكن هذه الكتب لم يبقَ لها ذكرٌ اليوم الا في برنامجات المكاتب القديمة ولا يطلب علمآء هذه الايام الوقوف عليها الا بقصد الاطلاع على الشيء الغريب كما يحبّ احدنا الاطلاع على عوائد اهل الصين مثلاً . ولذلك فان ما وضعهُ السلف من الالفاظ العلمية لا يكاد يغني عنا شيئاً من المطالب العصرية حتى في العلوم التي بحثوا فيها ولكنهُ ولا ريب الدليل المقنَع على ما ذكر من ان اللغة لا تضيق عن حاجتنا والحجة الناطقة بتقصير ائمة العلم منـا واستسلامهم بأفضل ذخائرهم لعوامل الضياع . على أنّا اليوم في اول شوطنا وقد قرع اسماعنا من التنبيه ما يكفي لأن يوقظنا من غفلتنا ويحثنا على المبادرة الى سدّ هذه الثلمة وتدارك اللغة من الفوات فان فعلنا والا لم تلبث ان تلحق باللغات الغابرة ولا يبقى منها الا ما حفظتهُ الخزائن من مصاحف الاولين

وما استغربنا في هذا المقام الا كلاماً لبعض مكاتبي المؤيد يقول فيهِ ما نصهُ « واما اقتراح بعض الافاضل " تشكيل " جمعية لاستبدال الكلمات الاعجمية بما يرادفها من الكلمات العربية فهذا امرٌ لا طائل تحتهُ (! !) فان تشكيل جمعية لاجل تغيير نحو مئة كلمة (كذا) فهذا يمكن " لجريدة " مثل جريدة المؤيد ان تقوم بهِ » .....

واغرب من هذا ما جآء لمكاتبٍ آخر في العدد التالي قال ما حرفيتهُ « وقبل وضع القلم لا بد من التكلم على امرين الاول تعديل اقتراح ذلك الفاضل في المؤيد بأن كل كاتب ممن " نوه عنهم " المقترح يكتب للمؤيد كل ما يراهُ بهذه الصدد وأقترح مع هذا ان يكون المؤيد حكماً .. اما انتظار

تأليف جمعية فأمرٌ يطول واليك ما اراهُ

« تسمى عربة أوتوموبيل (جوابة) وعربة الترامواي (سيارة) والتلغراف بسلك (برق) والتلغراف بدون سلك (لمح) أو (شعاع) والتلفون (سفير) أو (الناقل) أو (النمام) والفنوغراف (سمير) والفتوغرافية (عين) أو (رصد) والسنتمواغرافية (خيال) .. والياقة (رقبية) والحرملة (كتفيّة) والبنطو (ظهري) والبنطلون (ساقان) نخاقان » .....

كذا ما قرأناهُ بحرفهِ ورسمهِ . فانظر بعيشك هل سمعت قطّ أو كنت تترقب ان تسمع مثل هذا الكلام واذا كان هذا جلّ ما تنتظرهُ الامة من علمآئها وكتابها في مثل هذا المعترك فيا لفشل الامة ويا لضياع اللغة بل هي البشرى للمستر ولمو ر واصحابهِ بخروجهم من هذا المجال فائزين ... والا أفليس من الغريب ان يُنشَر مثل هذا الكلام في جريدةٍ هي اشهر جرائد العربية واشيعها ثم لا يوجد بعد نشرهِ من يردّ هذا القائل الى هداهُ ويدفع عن القرآء هذا التغرير الفاضح ولا سيما والمقام مقام مناظرة او كما يعنونهُ المؤيد تنازع بقآء والخصم واقفٌ بالمرصاد يرمينا بالجهل والغباوة

كلاّ ايها الكاتب الخبير انها ليست «مئة كلمة» كما توهمت بل لو نظرت في احدى المجلات العلمية وقرأت انبآء ما يحدث كل يوم عند اولئك القوم من فنون الاختراع وضروب الاكتشاف لوجدت المئة كلمةً في جزء واحد منها . ولا نكلفك الوقوف على معاجم المصطلحات العلمية والصناعية واصغرُها كمعجم بوليّاي المطبوع منذ نحو اربعين سنة يبلغ لا اقلّ من ١٨٠٠ صفحة كبيرة بالحرف الدقيق تتضمن الصفحة لا اقلّ من ٦ الى ١٠ كلمات هي

رؤوس المواد فضلاً عما يتخلل شرحها من التفاصيل وكل ذلك لا تجد عندنا منهُ ما يملأ عشرين صفحة والباقي ممـا يتعين علينا ترجمة بعضهِ وتعريب البعض الآخر . ولا نذكر ما حدث في مدة هذه الاربعين سنةً التي اربت الاختراعات والاكتشافات فيها على كل ما سبق منها في السنين الغابرة ولا سيما في فنَّي الكيمياء والكهربائية مما لا يدخل تحت حصر ولا تزال حلقاتهُ متتابعةً الى هذا اليوم . وحسبنا من ذلك ان نشير الى كتاب موسوعات العلوم الكبير الذي شُرع في طبعهِ منذ سنواتٍ باللغة الفرنسوية وقد بلغ الى الآن نحواً من خمسة وعشرين مجلداً كل مجلدٍ منها لا تقل صفحاتهُ عن الف صفحةٍ كبيرة غالبها فيما ذكر وهو لم يبلغ ختامهُ بعد . على ان مؤلفيهِ لم ينتهوا الى ما وصلوا اليهِ اليوم حتى صار يلزمهم ان يرجعوا فيهِ على حافرتهم ويزيدوا عليهِ ما حدث بعد طبع ما طُبع منهُ ثم هلمَّ جرًّا بعد ذلك الى ما يعلم الله حدَّهُ . ومع هذا كلهِ فان من ادبائنا من يقول ان تأليف جمعية لتعريب الالفاظ التي فاتتنا امرٌ لا طائل تحتهُ وهل من طائل اعظم من هذا ان استطعنا ان نبلغ منهُ ولو القدر الذي تدعو اليهِ أمسّ حاجاتنا الحاضرة وكان فينا رجالٌ قوَّامون بمثل هذا العمل الكبير . ام سبق الى وهم هذا الكاتب ان كل جمعيةٍ لغوية — بل كل جمعية وطنية — تكون على مثال « المجمع اللغويّ » المشهور . . . اللهمَّ ان كانت الجمعية التي أُشير بعقدها ستجري على خطة المجمع المذكور فنحن اول من يشير بتركها تفادياً من تجديد ذلك الوسم المعيب والجمع بين عار التقصير وعار الفشل

(ستأتي البقية)

الغبار الحيواني والنباتي

لو كان يمكن ان تميّز ارضنا لوجدتَ نصف ترابها رِمَم البلى أَجلْ واذا اعتبرت ان الارض منذ الوف بل الوف من السنين تخرج الحيوان والنبات حتى يغطيا سطحها ويشحنا هوآءها ومآءها ثم يرتدّ كل ذلك اليها على مرّ الثواني لم تجد في هذا القول مبالغةً . ومن تفقّد اتربة الارض وصخورها وجد الكثير منها مؤلَّفاً من جثث الحيوان وحطام النبات وهذه الطبقات الطباشيرية المؤلفة من خلائق لا تحصى من ذوات الاصداف ومعادن الفحم الحجري المؤلفة من غياض لا تُحَدّ من عظام الشجر شاهدةٌ بذلك وهي ليست بالشيء القليل في الارض ولا محصورةً في مكانٍ منها أو في طبقةٍ من طبقاتها ولكنك تراها في ظاهر الارض وباطنها وفي كل بقعةٍ من سهولها وجبالها وبحارها . ومعلومٌ ان المآء والريح دائما العمل في سطح الارض فالمآء يحطّم ما يمرّ بهِ من الصخور ويحلّ الاتربة والريح تجفف هذه المحطّمات وتنسف دقائقها في الجوّ فتتطاير لخفتها وتحملها من اقاصي الارض الى اقاصيها . ولذلك لو فحصت الهوآء الجوّي لوجدتهُ يموج بمقادير لا تحصى من هذه البقايا المتحطمة فضلاً عن جثث الحيوانات الصغرى المتطايرة كاملةً أو متحطمة مما يسهل معرفتهُ لبقآء هيئاته واشكالهِ وقد وجد الفاحصون منها ما لا تحصى انواعهُ وما يتجمع منهُ على التمادي في بعض الامكنة مقادير عظيمة . ويضاف الى الجثث الميتة ما ينتثر عن اجسام الاحيآء من الاجزآء المتقشرة فان البنية تهلك انسجتها على الدوام ويتجدد

غيرها وذلك بما يعرض لها من الدثور المتواصل في جميع اجزآئها وكل ما دثر منها ينفصل فيحملهُ الهوآء . فاذا تفقدنا جسم الانسان وجدنا انهُ يحدث في جميع سطح بشرتهِ تقشرٌ بطيء هو الذي يحفظ على البشرة لينها ونعومتها ومثل ذلك يحدث في بعض الاحوال المرضية على اثر بعض العلل الجلدية كالبرص والقوبآء والحزاز وغيرها أو العلل النفاطية كالحمرة والجُدَريّ والحمى التيفوئيدية وفي هذه الحال تكون الاجزآء المتطايرة عن الجسم سبباً لانتشار الامراض التي هي صادرة بسببها

وعدا الريش والزَغَب والقشور الصدفية المتناثرة عن بعض الحيوانات الصغرى فان هناك عدة أشيآء تضاف الى هـذه المذكورات منها قشور بيض الهوام وجلود بعض انواع الديدان والانقاف وسلوخ بعض الحيوانات كالحيات والعقارب والعناكب وامثالها من الحيوانات القشرية وكلها من المواد التي اذا تحطمت حمل الهوآء حطامها ونقلتهُ الرياح في كل وجه . ومثل ذلك نسيج العنكبوت المتطاير في الهوآء بعد تمزُّقهِ ويضاف الى كل ما ذُكر فضلات الحيوان المبرزة التي اذا جفّت تطايرت ايضاً مع الهوآء . وعلى الجملة فان الهوآء الذي نتنفسهُ يشتمل على ما لا يُحصى من المواد التي اكثرها مما يُتقزز منهُ ومما يكون سبباً في كثير من الامراض التي تدخل على الجسم

وكذلك النبات فان الهوآء يحمل من حطامهِ وبقاياهُ ما لا يقلّ عما يحملهُ من الحيوان فان النبات بعد موتهِ تتحلل اجزآؤهُ كما تتحلل اجزآء الحيوان ثم يجف ويتحطم فتحملهُ الريح وهذا في النبات فعلٌ دائم في الحياة ايضاً فان اوراقهُ وازهارهُ وبزورهُ ولحاءهُ وقشور حبهِ ابداً تتناثر وتتساقط

فيكون عنها مثل ذلك

وفضلاً عن البقايا المذكورة فان الهوآء مشحونٌ بالجراثيم والبزور الحيّة من صغار الحيوان والنبات تحملها الرياح الى كل جهة وهو السبب في انتشار هذه الانواع في جميع اطراف الارض بحيث انهُ لو شخصت جزيرةٌ من دَرَك البحر لم تلبث ان تنبت عليها الاعشاب البرية ويوجد فيها من الهوامّ ما لا يوجد الا في البرّ فسبحان من جعل لكل شيءٍ سبباً وهو المدبّر الحكيم

العقوبة بالقتل

لا شك ان القتل من اهول العقوبات وافظعها لكن ضروب القتل تتفاوت بتفاوت الوسائط التي يتمّ بها حتى يختلف بعض الموت عن بعض خلافاً لما قال الشاعر

ومن لم يمت بالسيف مات بغيرهِ　　تعددت الاسباب والموت واحدُ

والناس مختلفون في تجويز القتل عقوبةً على اي جريمةٍ كانت لما فيهِ من القسوة والفظاعة التي تنفر منها القلوب الرقيقة وقد أُلغي العقاب بهِ من كثيرٍ من الممالك المتمدنة والتي تجيزهُ ما برحت تلتمس لهُ اسهل الطرائق واقلها عذاباً للمقتول عملاً بمقتضى الشفقة وان لم تكن في القتل شفقةٌ بحيث يُقضى عليهِ في اسرع ما يمكن . والظاهر ان اقل آلاتهِ عذاباً المِقصَلة (الكليوتين) لانها تقضي على المجرم في اقل من لحظة وهي الشائعة اليوم في اكثر ممالك اوربا ولعلها اخف من الكهربائية التي اعتمدها الاميركان في السنين الاخيرة

وقد كان القتل قديماً يجري على الغالب بالذرائع التي يقشعرّ منها البدن حتى كأن المقصود بهِ التشفي والانتقام من المقتول دون الزجر والعبرة لغيرهِ ومما يُنقل عن احد ملوك الرومان انهُ كان يأمر بتشديد عذاب المقتول واطالة مدة نزعهِ « حتى يشعر بانهُ يموت »

وقد تفننوا في طرق القتل على ضروبٍ شتى لم يتركوا فيها نوعاً من انواع الخشونة والتوحش الاّ اتوهُ . فمن ذلك ان العبرانيين كانوا خلا ضرب العنق الذي هو الواسطة البديهية في قطع حبل الحياة يستعملون فيهِ الرجم والجلد والاحراق والنشر وهذه الطريقة الاخيرة هي التي قُتل بها اشعيآء النبي . وكان المصريون يزيدون على ذلك ضروباً اخرى افظعها ما كانوا يعاقبون بهِ من يقتل احد ابويهِ فانهم كانوا يغرزون في كل جسمهِ قِطَعاً من القصب محدَّدة الاطراف في غلظ الاصبع ويقطعون قِطَعاً من لحمهِ حتى اذا صار كلهُ عَلَقةً من الدم وكاد يلفظ آخر نَفَسٍ من حياتهِ يرفعونهُ على حُزَمٍ من الشوك ويحرقونهُ

وكان الفُرس يسحقون المجرم بين صخرين عظيمين أو يسلخون جلدهُ وهو حيّ وربما طمروهُ في الرماد حتى يموت تحتهُ اختناقاً . وكانت لهم طريقة اخرى في العقاب يجعلون المجرم في صندوق يخرجون منهُ رأسهُ ويديهِ ورجليهِ ويتركونهُ كذلك مدة خمسة عشر يوماً يطعمونهُ ويسقونهُ تأخيراً لأجَلهِ ويطلون وجههُ بالعسل ليحوم عليهِ الذباب والنمل والزنابير . وتوصل المتأخرون منهم الى ما هو افظع من ذلك فانهم كانوا يبضعون في البدن بضعاتٍ عميقة ويضعون فيها فتائل مطلية بالكبريت يوقدونها ايقاداً بطيئاً

اما اليونان فلم يُروَ عنهم غير الشنق وضرب العنق والذعف اي القتل بالسمّ . والرومان كانوا يعاقبون الاحرار بضرب العنق والأرقّاء بالصلب أو الجلد وكانوا احياناً يقذفون المجرم عن ظهر حالق ومن قتل احد ابويهِ وَأَدُوهُ اي دفنوهُ حياً . وكان اشدّ ما يُروَى عنهم من الفظائع ما كانوا يفعلونهُ في التنكيل بأهل النصرانية فانهم كانوا يلقونهم الى السباع او يمزّقون اجسادهم بالكلاليب أو يحرقونهم احياءً الى غير ذلك مما هو مشهور

وهناك ضروبٌ أُخر منهـا ان تُشَدّ اطراف المجرم الى اربعة افراس يُخالَف بين كل اثنين منها ثم تُطرَد فيتمزق قِطَعاً وربما جذبوا غصنين من شجرتين وشدّوا الى كلٍّ منهما واحدةً من رجليهِ ثم ارسلوهما فينقدّ جسمهُ شطرين واكثر ما كان يُستعمَل ذلك عند متقدمي ملوك الفرنك . ومنها غمس المجرم في حفرةٍ مملوءةٍ من الحمأة حتى يغيَّب فيها فيموت اختناقاً وهي من طرائق الجرمانيين . ومن جملة ما كان يُستعمل عند الروس ما يسمونهُ بالكنوت (او القنوط) وهو سوطٌ يُجمع فيـهِ عدة سيور ضخمة من جلد البقر تُجدَل عند اصلها وتُترَك اطرافها سائبة ويُجعل في كل طرف اسلاكٌ مفتولة من الحديد فحيثما وقعت على جسم المجرم سال منهُ الدم فلا تتكرر عليهِ خمس أو ست ضربات حتى يصير الجسم كلهُ كانهُ جراحةٌ واحدة وفي اقلّ من اثنتي عشرة ضربة تزهق نفسهُ

ومما يُروَى عن اهل سومطرا انهم كانوا الى اواسط القرن المـاضي يقطّعون المجرم حياً ويأكلون لحمهُ وهو من الاحكام الشرعية عندهم . وكان يُقضَى بهِ على خمسةٍ من مستحقي العقوبة وهم الزانية والسارق والاسير والمتزوج

من عشيرتهِ والمقتال وعند انفاذ الحكم يجتمع رجالُ القبيلة ويؤتى بالمحكوم عليهِ مشدوداً على سارية ويداهُ ممدودتان ثم يختار كل واحدٍ من الحضور قطعةً من جسدهِ فيقطعها ويأكلها على المكان فاذا فرغوا كلهم نهض زعيم الحفلة فقطع الرأس واكل الدماغ

واشهر الامم بهذه الفظائع اهل الصين فان عندهم اكثر اصناف العقوبات المذكورة واشدّها قسوةً وتعذيباً وعندهم نوعٌ غريبٌ منها وهو ان يملأوا المحكوم عليهِ خلاً بواسطة قمع يجعلونهُ في فيهِ حتى اذا صار كالزقّ المنفوخ وقعوا عليهِ بالعصيّ حتى يتقطع جلدهُ ويموت . وهناك نوع آخر اخترعهُ احد ملوكهم تلهيةً لنسآئهِ اذا ضجرنَ وذلك ان يُؤتى ببرميلٍ ونحوهِ من الحديد ويُملأ جمراً مشتعلاً ثم يعلَّق المجرم فوقهُ حتى يُشوى . ومن فظيع ما يُروَى عنهم ان رجلاً قتل اخاهُ فحُكم عليهِ بأن يقطَّع حياً الى عشرة آلاف قطعة . وحُكم على احد زعمآء اللصوص بأن يُوضَع في قفص ويُترَك فيهِ حتى يموت جوعاً

ومن قبيل هذا النوع الاخير اي القتل بغير سلاح نوعان آخران احدهما ان يُدغدَغ المجرم (اي يزكزك) دغدغةً متواصلةً حتى يموت من شدة الضحك ويُنسب اختراع هذه الطريقة الى جماعة من الرهبان يسمَّون بالاخوة المورافيين وهم من بقايا اتباع هُوس . والثاني ان يُمنَع من النوم فيموت معذباً بالسهر واول من ذُكر عنهُ هذا النوع من العقاب محمد بن الزيات وزير المعتصم ولهُ في ذلك قصة غريبةٌ لا بأس من ايرادها في هذا الموضع عبرةً للمطالع . قال ابن خلكان كان ابن الزيات قد اتخذ تنوراً من خشب

فيهِ مسامير من حديد واطراف مساميرهِ المحدّدة الى داخل وهي قائمة مثل رؤوس المسالّ . وكان يعذّب فيهِ المصادَرين وارباب الدواوين المطلوبين بالاموال فيكفما انقلب واحدٌ او تحرك تدخل المسامير في جسمهِ فيجدون لذلك اشد الالم ولم يسبقهُ احدٌ الى هذه المعاقبة. وكان اذا قال احدٌ منهم ايها الوزير ارحمني يقول لهُ الرحمة خَوَرٌ في الطبيعة . فلما اعتقلهُ المتوكل امر بادخالهِ في التنور وقيّدهُ بخمسة عشر رطلاً من الحديد فقال يا امير المؤمنين ارحمني فقال لهُ الرحمة خَوَرٌ في الطبيعة كما كان يقول للناس . فطلب دواةً وبطاقةً فأُحضرتا اليهِ فكتب

هي السبيل فمن يومٍ الى يومِ كانهُ ما تريك العينُ في النومِ
لا تجزعنَّ رويداً انهـا دُوَلٌ دنيا تنقَّلُ من قومٍ الى قومِ

وسيَّرها الى المتوكل فاشتغل عنها ولم يقف عليها الا في الغد فلما قرأها المتوكل امر باخراجهِ فجآءوا اليهِ فوجدوهُ ميتاً وكانت مدة اقامتهِ في التنور اربعين يوماً. ولما مات وُجد في التنور مكتوباً بخطهِ قد خطهُ بالفحم على جانب التنور

من لهُ عهدٌ بنوم يُرشدُ الصبَّ اليهِ
رحم اللهُ رحيماً دلَّ عيني عليهِ
سهرت عيني ونامت عينُ من هنتُ لديه

المكاتب والسوس

ما زال امر سوس الكتب شغلا شاغلا لاصحاب المكاتب الكبرى في اوربا وغيرها لما يحدث عنهُ من التلف ولا سيما في الكتب القديمة وقد

فرض مؤتمر المكاتب الذي عُقد في باريز سنة ١٩٠٠ ثلاث جوائز لمن يجد ذريعةً لاهلاكهِ

وسوس الكتب انواع اشهرها واعمّها الأَرَضة وهي متى كانت نِقفاً تكون اشبه بالدود الذي يوجد في البندق واذا نقفت في كتاب اغتذت من موادّهِ واستمرت تثقب امامها حتى تنفذ الى خارجهِ . وهي قد تثقب عدة مجلدات على الولآء حتى عدّ بعضهم سبعة وعشرين مجلداً مثقوبةً ثقباً واحداً على خطٍّ مستقيم قد ثقبتهُ أَرَضةٌ واحدة . وقد يُظنّ ان ثخانة لوحي الكتاب تمنع الارضة من اختراقهِ ولكن الواقع بالخلاف فقد تبين ان الكتب اذا كانت مغلفةً بورق كان فعل الأَرَضة فيها اخفّ . ووُجد ايضاً ان الكتب القديمة معرَّضة لضررها اكثر من الحديثة لاختلاف نوع الورق اذ الورق كان قديماً يُصنَع من القطن او الكتان وفي هذه الايام يتخذ من الخشب ويخالطهُ شيءٌ من الجص او الكاولين مما لا يطيب لهذه الهوامّ . ومما يزيد في ميل الارضة الى الكتب ما يستعمل في التجليد من الغرآء النشآئي ولذلك ينبغي للمجلدين ان يضيفوا الى النشآء شيئاً من الشب او غيرهِ من المواد التي تمنع تعفنهُ

وقد علُم ان الارضة اكثر ما تضع بيضها في خشب الزان ولما كانت على ما ذكر من الميل الى النشآء اشار بعض ذوي الاختبار ان يؤخذ قطعٌ من هذا الخشب وتُدهَن بطبقةٍ خفيفة من النشآء وتوضع في مدة الصيف في المكتبة فلا تلبث هذه الهوام ان تجيءَ وتلقي بيضها عليها . وهذا البيض لا ينقف الا في فصل الشتآء فتُترَك القطع المذكورة الى هذا الفصل ثم

يكشف عنها بين شهري يناير ومارس فاذا وُجد فيها تحزيزٌ او انثبار في مواضع من سطوحها استُدلَّ على وجود البيض فتُلقَى قِطع الخشب في النار وبهذه الواسطة يُقطع دابر هذه الهوام

واما اذا كان هناك ضروبٌ اخر من الهوام مما لا يهلك بهذه الطريقة فأفضل ما يُستعمل للوقاية منها زيت التربنتينا او الكافور او ما اشبههما من الموادّ يُجعل شيءٌ منها على قطعة من الجوخ وتوضع وراء صفوف الكتب. واذا كان ثمَّ كتبٌ ثمينة ولا سيما ما كان منها مجلدًا بالخشب اختير ان يستعمل لوقايتها زيت الأَرز وخاصّية هذا الزيت في طرد الهوام معروفةٌ من قديم. واشار بعض الكيماويين ان يُخلَط غرآء النشاء الذي يتخذ للتجليد بدقيق الشاهبلّوط (الكستنا) الهندي وهو مرّ الطعم لا تُقدِم عليه الهوامّ لمرارته. واشار غيرهُ بان يُستعمَل لذلك البنزين تؤخذ منهُ قطرةٌ فقطرة على اسفنجة وتُمسَح الكتب التي انتابتها الهوام ويكرر ذلك على مرتين فتهلك لا محالة

واشار بعض المجرّبين انهُ متى وُجد ثقبٌ في كتاب يُدخَل فيه ابرة او سلكٌ دقيقٌ لقتل الأَرَضة ان كانت باقيةً ثم يُسدّ الثقب بسحوق الكافور او بالفلفل الحرّيف بعد خلطهِ بالشمع الملَيَّن. على ان افضل الوسائط دوام تعهد الكتب بالتنظيف والتعريض للهواء والنور وهي الطريقة المعتمدة في جميع المكاتب العمومية لان هذه الامور الثلاثة من اكبر اعداء هذه الهوام وفي الكتب التي يكثر استعمالها بين ايدينا شاهدٌ على ذلك وما اصدق ما قالهُ بعضهم ان مكاتب العلماء العاملين لا تدخلها الأَرَضة

تحويل المعادن

من العلماء اليوم من عاد الى البحث في امر تحويل المعادن بناء على ان ما كان المتقدمون يزعمونهُ من هذا القبيل ليس من الامور التي تستحيل في الطبيعة بيد ان المتقدمين كانوا يذهبون الى ان المعادن يتحول بعضها الى بعض بطول الزمن والقائلين بذلك في هذه الايام يرجعون بامكان هذا التحوّل الى ان جميع الاجسام مردودة الى عنصرٍ واحد وانما تختلف اعراضها باختلاف حركات الدقائق المؤلف منها الجسم وتفاوتها في الكثافة والتلزز . وذلك كما بين الاوزون والاكسيجين فانهما على الحقيقة عنصرٌ واحد وكذلك الفصفور الاحمر والفصفور الابيض وانما اختلفت اعراضهما باختلاف دقائق كلٍّ من الجسمين بأن كانت في احدهما بسيطة وفي الآخر مركبة من عدة دقائق متكاثفة وذلك مع بقاء خصائص الجسمين الكيماوية بحالها وان اختلفا في الخصائص الطبيعية . وبناء على هذا الاعتبار اخذوا منذ حين يزاولون تحويل الفحم الى ألماس بواسطة الحرارة والضغط الشديدين وقد تحقق لهم ذلك كما تقدم لنا شرحهُ في هذه المجلة [1] ولو لم يصلوا الى صنع حجارة في حجم الحجارة الطبيعية لما هناك من الفرق بين العاملَين ولكن هذا لا يقدح في اصل المبدأ الذي تمّ بهِ هذا التحويل . وعليهِ فاذا امكن تحويل الفحم الى الماس بمثل هذه الذريعة فلا يستحيل في رأيهم ان تحوَّل الفضة مثلاً الى ذهب

(١) السنة الاولى صفحة ٧١٥ وما يليها

ويثبتون هذا الرأي بادلةٍ منها التحليل الطيفي قالوا فان طيف الابخرة المعدنية اشبه شيء بطيف الهدروجين وكلما ارتفعت حرارة المعدن في الامتحان ازداد هذا الشبه قرباً حتى يصير الطيفان اخيراً واحداً . ثم ان جوّ الشمس معظمهُ مؤلف من الهدروجين ومثلهُ جوّ سائر النجوم المضيئة بنفسها على الاطلاق فيظهر ان الهدروجين مصاحبٌ دائماً للحرارة الشديدة وفي ذلك ما يدل على انهُ اصلٌ للعناصر المختلفة تتحول عنهُ عند هبوط الحرارة وتبدُّل سائر العوامل . على انهُ ليس من السهل اثبات ان مثل الزئبق والذهب والبلاتين التي هي اثقل المعادن حاصلة من تكاثف عنصرٍ غازيّ هو اخفّ من الهوآء باربعة عشر ضعفاً فان ذلك مما تعجز مدارك البشر عن تحقيقهِ . وعلى الجملة فالامر من الاسرار التي لا تزال محجوبةً عنا وانما يوكَّل بكشفها الامتحان وتعاقب الزمان والله اعلم

حمام الزاجل

جآء في خطط المقريزي في الكلام على هذا الحمام ما آثرنا نقلهُ بياناً لما كان لهم من شديد العناية بهِ وما يتعلق بذلك من كيفية استخدامهِ وسائر احكامهِ . قال كان بالقلعة ابراج برسم الحمام التي تحمل البطائق وبلغت عدّتها على ما ذكرهُ ابن عبد الظاهر في كتاب تمائم الحمائم الى آخر جمادى الآخرة سنة ٦٨٧ الف وتسعمائة طائر . وكان بها عدّةٌ من المقدّمين لكل مقدم منهم جزء معلوم وكانت الطيور المذكورة لا تبرح في الابرج بالقلعة ما عدا طائفةً منها فانها في برج بالبرقية خارج القاهرة يُعرَف ببرج الفيوم رتبهُ الامير فخر الدين عثمان بن قزل استادار الملك الكامل محمد ابن الملك العادل بن بكر بن ايوب وكانت البطائق ترد اليهِ من الفيوم

ويبعثها من القاهرة الى الفيوم من هذا البرج . وكان في كل مركزٍ حمام في سائر نواحي المملكة مصرًا وشامًا ما بين اسوان الى الفرات فلا تحصى عدة ما كان منها في الثغور والطرقات الشامية والمصرية . وكانت العادة ان لا تُحمل البطاقة الا في جناح الطائر لامور منها حفظ البطاقة من المطر وقوة الجناح ثم انهم عملوا البطاقة في الذنب . وكان يُعمل في الطيور السلطانية علائم وهي داغات في ارجلها او على مناقيرها وكان الحمام اذا سقط بالبطاقة لا يقطع البطاقة من الحمام الا السلطان بيدهِ وكانت لهم عناية شديدة بالطائر حتى ان السلطان اذا كان يأكل لا يتمهل حتى يفرغ من الاكل بل يحل البطاقة ويترك الاكل وهكذا اذا كان نائمًا لا يُمهل بل ينبّه . قال ابن عبد الظاهر وينبغي ان تكتب البطائق في ورق الطير المعروف بذلك ورأيت الاوائل لا يكتبون في اولها بسملة وتؤرخ بالساعة واليوم لا بالسنين ولا يكثر في نعوت المخاطبِ فيها ولا يذكر حشوٌ في الالفاظ ولا يكتب الا لبّ الكلام وزبدتهُ ولا يعمل للبطائق هامش ولا تعنون الا اذا كانت منقولة مثل ان تسرَّح الى السلطان من مكانٍ بعيد فيكتب لها عنوان لطيف حتى لا يفتحها احد وكل والٍ تصل اليهِ يكتب في ظهرها انها وصلت اليهِ وينقلها حتى تصل مختومة . . قال مؤلفهُ وقد بطل الحمام من سائر المملكة الا ما ينقل من قطيا الى بلبيس ومن بلبيس الى قلعة الجبل ولا تسل بعد ذلك عن شيء وكأني بهذا القدر وقد ذهب ولاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

ومن لطيف ما ذكر في هذا الكتاب ان العزيز بالله (في اواخر القرن الرابع) اراد ان يسافر الى الشام في زمن ابتدآء الفاكهة فامر الوزير (يعقوب بن يوسف بن كلس) ان يأخذ الاهبة لذلك فقال يا مولاي لكل سفرٍ اهبةٌ على مقدارهِ فما الغرض من السفر فقال اني اريد التفرج بدمشق لاكل القراصيا فقال السمع والطاعة وخرج فاستدعى جميع ارباب الحمام وسألهم عما بدمشق من طيور مصر واسماء من هي عندهُ وكانت مئة ونيفًا وعشرين طائرًا ثم التمس من طيور دمشق التي هي في مصر عدّةً فاحضرها وكتب الى نائبهِ بدمشق يقول ان بدمشق كذا وكذا طائرًا

وعرَّفهُ من هي عندهُ وامرهُ باحضارها اليهِ جميعها وان يصيب من القراصيا في كل كاغدة ويشدّها على كل طائرٍ منها ويسرّحها في يومٍ واحد فلم يمضِ الا ثلاثة ايام او اربعة حتى وصلت الحمائم وعلى جناحها القراصيا فاستخرجها من الكواغد وعملها في طبق من ذهب واحضرها الى العزيز بالله فأعجب العزيز بالوزير وقال مثلك من يخدم الملوك . انتهى باختصار

مأساة هندية

الظاهر ان فن التمثيل وُجد عند الهنود من عهدٍ قديم ولا يبعد ان يكونوا اول من سبق اليهِ وعنهم اخذ اليونان وغيرهم الى يومنا هذا . وقد وقفنا في بعض المؤلفات الفرنسوية على فصلٍ من مأساةٍ (تراجيّديا) قديمة فاحببنا تعريبهُ فكاهةً للقرآء . وقد كان من حديث هذه المأساة ان احد ملوك الهند المسمى ناراتشَنْدرا اتخذ ضرّةً على زوجتهِ الملكة تسمى أَقاني وكان للملك ولدٌ في السادسة عشرة من العمر كانت اقاني قد كلفت بحبهِ كلفاً شديداً وفرّ منهُ يوماً حمامةٌ ودخلت الى قصر الحرم فدخل ليأخذها فاغتنمت اقاني تلك النهُزة لمكاشفتهِ بحبها . وكان الولد خالي الصدر فلم يفهم ما يراد منهُ وقبّلها كما قبّلتهُ فاشتدّ وجدها الى حد الوله وضغطتهُ بين ذراعيها ضغطةً شديدة فلم يزد على ان قال « لقد آلمتِني يا أُمَّاه » . فلما سمعت منهُ ذلك استشاطت من الحدّة فاغلظت لهُ وطردتهُ فذهب والدمع يترقرق في عينيهِ وهو يستفهمها عن ذنبهِ . فلما فصَل عنها وتمثلت ما كان منها ومنهُ اخذت تخاطب نفسها بالكلام الآتي وهو آخر مشهدٍ من المأساة

« ... يا لك من امرٍ لم يسمع بمثلهِ السامعون

« أُمٌّ تدعو ولدها الذي هو اطهر من زهرة السوسن الى الحبّ الدعِر ولا

تثور البحار فتغمر الارض بلجها ولا تأتمر الكواكب على ابادة هذا العالم الممقوت

« ولا تنهزم الفضيلة والمجد والشرف من ارضٍ ينشأ فيها ضوارٍ مثلي

« ولا ترتعد فرائص جميع الامهات اللواتي يحملنَ في احشآئهنَّ ثمرات حبٍّ قد باركتهُ الآلهة اذا خُيّل اليهنَّ انهنَّ ربما يضعنَ اولاداً يكونون في دنآءة أثاني

« ولا يزال النسّاك القدّيسون المعتزلون في الغابات يبتهلون عن الاحيآء والاموات

« ولا ينقطع قُتار الذبائح عن التصاعد مع البخور والصندل الى سماوات اندرا الاربع عشرة

« ولا يفصم برَهما سلسلة التناسخ على هذه الارض لكي يبيد مخلوقاً يلطخ ضوء النهار بالعار

« انهُ كان طفلاً صغيراً ... انهُ لم يكن يحسن لفظ اسم الله الذي تعبدهُ كل الآلهة لما دخلتُ بيت ناراتشندرا ابيهِ

« لقد حملتهُ على ذراعيَّ وحضنتهُ في حجري . وانا التي عند ما بلغ ان يأكل كنت اول من ادخل فاهُ حُبيباتٍ من الأَرُزّ وانا التي عند ما حاول المشي كنت انعشهُ من كبواتهِ الاولى

« انا اول من ناداها بكلمة آما وهو يقرع احدى يديهِ الصغيرتين بالاخرى

« آه ايتها الشقيّة . اني الف مرةٍ اوقح والف مرةٍ افجر من اللواتي يستسلمنَ الى عابري السبيل بين اشجار النارجيل

« لقد جآء الى قصري وهو في غضاضة زهرةٍ من الورد وفي طهارة

اريجها الذي ينبعث عن اشعة شمس الصباح

« فاجترأتُ على ان اضغط شفتيَّ على شفتيهِ اللتين تشبهان سوسن الغدير طيباً . وبعد ما ضممتهُ بين ذراعيَّ وانا اتأكَّل بحرارة الوجد طوَّقت جسدهُ الحَدَث كما تطوّق الافعى الخبيثة احد الاغصان المزهرة وضغطتهُ ضغطةً شديدة حتى صاح من الألم

« قال أُماه ... وانا ابكيتهُ ...

« ويلكِ يا شقيّة . ان الموت اقلّ من ان يكفر عن هذا الاثم الفظيع

« لتحلّ نفسي مدة الف الف دهرٍ من دهور الآلهة في اجساد انجس الحيوانات

« ولا يكن طعامي الا من جِيَف الاموات

« ولا يكن منفايَ الا في الآنية المنتنة التي تستودَع فيها عظام الرمم

« وليكن موتي في كل دورٍ موتاً هائلاً

« ومتى أُعِدتُ الى جماعة الانسان فليبقَ جسمي على مدة الف عقِبِ مضروباً بالبرص والجُذام »

(ثم تستلّ خنجراً فتغمدهُ في صدرها)

اسئلة واجوبتها

القاهرة — ما كفى هذه اللغة ما وصلت اليهِ من الفساد في ألسنة الناطقين بها وتفرُّق كتبها في ممالك الارض حتى ابتليت بداءٍ آخر وهو ان هذا القليل الباقي منها في بلادنا أو الذي يصل اليها من البلاد الاجنبية

لا ينتهي الينا الا محرَّفاً مشوَّهاً فلا نتناول الفائدة الا بشقّ النفس ولا نستعملها الا ونحن منها بين الشك واليقين . وقد رزقنا الله هؤلآء الآباء الجزويت يتلاعبون باللغة وبنا كما شآءوا وشآء مبلغ علمهم منها وحرصهم عليها وقد رأيناكم توليتم تصحيح الكثير من كتبهم وان بقي من دون ذلك ما يسهل اصلاح صورة الجاحظ قبل اصلاحهِ ولكن ما يُدرَك كلهُ لا يُترَك جلُّهُ والله لا يضيع اجر المصلحين

ولقد كنت ممن ابتُلي ببعض كتبهم — وفي البعض منها كفاية — وكان من جملة ما قُدّر لي معاناتهُ معجمهم المسمى بأقرب الموارد وهو الذي ورد ذكرهُ مراراً في ضيآئكم الباهر واشهد انهُ لم يقرّبني الا من موارد الخطأ ولم يوردني الا سراب الحيرة ولديَّ منهُ اشيآء لا اجد غنًى عن استفتآئكم فيها ان تفضلتم بالكشف عنها حتى ان وجدت منكم ارتياحاً لاجابتي جئتكم بغيرها والله يتولى مكافأتكم عني بفضلهِ وكرمهِ

فمن ذلك ما جآء في مادة (ح ب ب) « حَبُبَ اليهِ صار حبيباً لهُ ولا نظير لهُ الا لَبُبَ وسَرُرَ » . فاني لم افهم المراد بالتنظير بين هذه الافعال الثلاثة أمن حيث الوزن هو ام من حيث فك الادغام . ثم ما معنى « سَرُرَ » فاني لم اجدهُ في موضعهِ من الكتاب

وفي هذه المادّة « المحبة ميل الطبع الى الشيء الملِذّ » وقد راجعت في مادة (ل ذ ذ) فلم اجد صيغة افعل فهل يجوز ان يقال « الملِذّ » من لذّ المجرد

وفي مادّة (ح ج ج) « حَجاج الشمس حاجبها ج حِجاج واحجّة »

فهل يكون فِعال بالكسر جمعاً لفَعال بالفتح

وفي مادة (خ ي ر) « الخيرة الكثيرة الخير الفاضلة من كل شيء يقال خير الشاء وشرّتهم » ما معنى قولهِ « خير الشاء وشرّتهم » وكيف يكون هذا تمثيلاً على الخيرة

وفي مادة (ق ر د ح) « قردح الرجل اقرَّ بما يُطلَب اليهِ او منهُ وتذلل وتصاغر كي لا تحترق (اللسان) » . فما معنى هذه الجملة الاخيرة وباي لغةٍ يتكلم المؤلف هنا . زهدي ابراهيم

الجواب — اما مسئلة حَبُبَ وما يليهِ فالقصد فيها التنبيه الى ورود هذه الافعال من باب كَرُمَ اي بضم العين في الماضي والمضارع وهذا البناء شاذٌّ في المضاعف لم يُسمَع فيما ذكروا الاَّ في هذه الافعال الثلاثة . واما الزامها فك الادغام كما رايتموها في عبارة الكتاب فهو غلط والصحيح انها تُدغَم حيث يجب الادغام وتُفَكّ حيث يجب الفك فيقال حبَّ زيدٌ وحبُبْتَ يافتى كما يقال في سائر الافعال المضاعفة . وكأن الذي غرّ المؤلف قول صاحب القاموس « حبُبْتُ اليهِ ككَرُمَ صرت حبيباً لهُ ولا نظير لهُ الا شرُرْتُ ولبُبْتُ » فظنّ ان هذه الصورة لازمةٌ لهذه الافعال وانما فُكّ الادغام هنا لمكان اتصال الفعل بالضمير كما لا يخفى وهم يفعلون ذلك اذا ارادوا اظهار حركة العين . واما قولهُ « سرُرَ » فلا معنى لهُ وصوابهُ بالشين المعجمة من الشرّ كما جاء في عبارة القاموس يقال شرُرْتَ يا رجل اي صرت شريراً

واما قولهُ « الشيء الملِذّ » فصوابهُ اللاذّ وانما الملذّ من الفاظ العامة كما يقولون هذا امرٌ مسِرّ

واما جمعهُ « الحَجاج » بالفتح على « حِجاج » بالكسر فالصواب ان المكسور لغةٌ في المفتوح كما هو ظاهر من عبارة القاموس وكلاهما مفرد والأَحِجّة جمعٌ لكليهما على حدّ زَمان وأَزمِنة وهِلال وأَهِلّة

واما قولهُ اخيراً « خير الشاء وشرَّتهم » و « تصاغر كي لا تحترق (اللسان) » فمما نعترف بالعجز عن تفسيرهِ . واما « باي لغة يتكلم المؤلف هنا » فلا نخالكم تنوون بهذا السؤال خيراً ولكن نحقق لكم ان الرجل على غير ما ظننتم وانتم بعد ذلك وما يتخيل لكم فيهِ والله اعلم

القدس — هل يجوز ان يقال مثلاً عوضاً عن غرفة النوم التي لي غرفتي النوم كما يقال في الدارج وحسب اصطلاح الاوربيين . وان جاز فهل يكون النوم تمييزاً او مضافاً اليهِ والمضاف محذوف يفسرهُ المذكور

اسبر ضومط

الجواب — الظاهر ان هذا لا يجوز بحال لا على جعل النوم تمييزاً كما ذكرتم لانهُ لا ينطبق على حكم التمييز ولا على اضمار مضافٍ محذوف لان عامل الجرّ لا يحذف . على ان المعنى على كل حال يقتضي الاضافة وقد حيل دونها بالمضاف اليهِ الاول الذي هو ياء المتكلم وحينئذٍ فلا بدّ من العدول عن هذا التركيب إمّا الى التركيب الذي ذكرتموهُ اولاً وهو فضلاً عن طولهِ لا يخلو من ركاكة واما الى تركيبٍ آخر يفيد المعنى . ولم نقف على شيء من مثل ذلك في كلام العرب سوى انهُ ربما ورد ما يمكن حملهُ عليهِ وذلك انهم اذا ارادوا النسبة الى مركبٍ اضافيّ كتيم عديٍّ مثلاً ينسبون الى

المضاف ثم يكررونهُ مع المضاف اليهِ لامتناع الاضافة مع النسبة فيقولون جآء فلانٌ التيميّ تيم عديٍّ . وقد يجري مثل ذلك مع المضاف الموصوف نحو اهدِنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم . الا ان هذا ايضاً لا يخلو من طول ولعل الاقرب في مسئلتنا ان نضيف الغرفة الى النوم ونضيف النوم الى الضمير ونقول هذه غرفة نومي وهو اخفّ في اللفظ وان لم يخلُ من تكلفٍ في المعنى . على ان هذا انما يصار اليهِ اذا كانت الاضافة الى الاول على معنى اللام كما في المثال أو على معنى في نحو فرغت من عمل نهاري واما ان كانت الاضافة على معنى من كما في خاتم ذهب اكتُفي باضافة الخاتم الى الضمير وجُعل الذهب بياناً للخاتم فتقول هذا خاتمي الذهبُ وحينئذٍ يجري مجرى الوصف في نحو قولك هذا خاتمي الثمين

ولا بأس هنا من التنبيه الى ان بعض كتبتنا يضيف في مثل هذه الصورة الاخيرة كقولهم ظل ظليل الحضرة السلطانية فيضيفون الظل الى الحضرة مع اعتراض الوصف بينهما ولم يكد يُسمَع مثل ذلك قبل هذه الايام الا نادراً كقول ابن النحاس

الجود بحرٌ وهو دُرُّ يتيمهِ والمجد بيتٌ وهو فيهِ قوامُ

اي وهو دُرَّهُ اليتيم . ومثلهُ قول الامير احمد بن معصوم

هو الحسن بل حسن الورى منهُ مجتدًى وكلهم يُعزَى لجوهر فردهِ

اي لجوهرهِ الفرد . وربما استعمل ذلك بعض ائمة العلم عندنا كمن يلقب نفسهُ « مفتش اول اللغة العربية » وكل ذلك مما لا يظهر لهُ في اللغة وجه صحيح

فكاهات

نتيجة الحقد (١)

كان للدوج بادوّلي احد عظمآء الطليان شهرة واسعة وغنى وافر وكان منطبعاً على طيب القلب وحسن السجايا متحلياً باجمل الصفات الادبية فسار ذكرهُ في الايالات الايطالية وانتخبتهُ لمبرديا دوجاً عليها . ورزقهُ الله ولدين كان بينهما عشر سنوات يُدعى اكبرهما لويجي والآخر مانولي . ومن سنَّة كبار الرجال في اوربا ان تهتمّ بابكارها فلا بد للاب من تفضيل ولدهِ البكر على بقية اولادهِ لاعتقادهِ انهُ يكون بعدهُ المحافظ الوحيد على اسم اسرتهِ وشرف محتدها وتدبير شؤونها وضبط ثروتها بحيث لا تتغير منزلتها على توالي الزمن . فصرف الدوج بادوّلي همهُ الى بكرهِ لويجي واعتنى بتثقيفهِ وتهذيبهِ واجرآئهِ على نفس خطتهِ ومع ذلك فلم يهمل امر مانولي كل الاهمال ولكنهُ لم يبذل فيهِ من العناية مثل ما بذل في امر اخيهِ فربي هذا حسوداً ماكراً طائشاً مسرفاً كاولاد الرعاع . ومما زاد في الطين بلة ان الدوج كتب وصيتهُ قبل وفاتهِ فالقى بمهمات منصبهِ الى بكرهِ لويجي وصرَّفهُ في مالهِ وعقارهِ تاركاً جزءًا قليلاً جداً لصغيرهِ مانولي . وكان يرى الدوج في بكرهِ آية الحكمة ومنتهى الكمال فيتهلل قلبهُ فرحاً وسروراً ولما كملت ايامهُ المعدودة في عالم الشقآء ودنت ساعة الفراق ضمّ لويجي الى صدرهِ مودعاً وقال لهُ ساموت مسروراً يا ولدي مطمئنّ البال باني قد تركت من يحافظ من بعدي على اسم اسرتنا الشريف ويقوم بمهاتها احسن مما كنت افعل انا

وحقق لويجي آمال والدهِ بعد وفاتهِ ونال شهرةً اعظم من شهرتهِ وحبّاً واعتباراً اكثر مما نال والدهُ . ثم تزوج ورزقهُ الله ولداً ذكراً دعاهُ باسم ابيهِ البرتو . وشعر

(١) معربة عن الطليانية بقلم نسيب افندي المشعلاني

لويجي بانكسار نفس اخيهِ مانولي لتفضيلهِ عليهِ فكان يفرغ جهدهُ في ازالة هذا الاثر من قلبهِ واقناعهِ بانهُ ولو ميزهُ الاتفاق وشرائع البلاد عن اخيهِ فهو لا يرى هذا التميز ويحسب انهُ واخاهُ شخصٌ واحد . وكان يرفع منزلتهُ في عيون الناس ولا يفضل نفسه عليهِ في شيء فضلاً عما كان يسوقهُ اليهِ من العطايا المادية والهبات الوافرة . وتزوج مانولي ايضاً فولد لهُ ابنةٌ دعاها مرغريت كانت آيةً في الجمال يتسابق اشهر مصوّري الطليان للتمكن من رسم صورتها

وحدث ان خرج لويجي وزوجتهُ يوماً في عربتهِ الخاصة طلباً للنزهة و بلغا غابة من الاشجار الكثيفة فجمح بهما الجواد ودخل بين تلك الاشجار ولم يستطع لويجي كبح جماحهِ فاوصلهما الى حافة منحدرٍ سقطت العربة من اعلاهُ ولم تزل تتدحرج حتى بلغت الحضيض . وكان هناك بعض الفعلة فبادروا لتدارك الحادث فوجدوا العربة كسراً والجواد قطعاً ولويجي وزوجتهُ مهشمي الاعضاء تسيل الدماء من جروحهما فحملوهما الى البيت واستدعيت نطس الاطباء لمعالجتهما فوُجد ان تلك السيدة السيئة البخت قد فارقت الحياة اما لويجي فكانت تنبئ جراحهُ الخطرة والعظم المتهشم في صدرهِ انهُ لن يشفى الا باعجوبةٍ سماوية . فاهتمت الاسرة بدفن الزوجة المسكينة ورفع الابتهالات وتقديم النذور لشفاء لويجي . و بعد ان قضى ما ينيف عن ثلاثة اشهر بين ايدي اطبائهِ نقه وتعافى فخرج كعادتهِ الى اشغالهِ ولكنهُ كان قد اثر فيهِ فراق زوجتهِ اشد التأثير فلم يعد يُرى مبتسماً وصارت هيئة وجههِ النضر اشبه بلوح قد رُسم عليهِ اليأس والشقاء . واجتهد الاطباء والاصدقاء في تسليتهِ والتهوين عليهِ فلم يتمكنوا من اطفاء تلك الجمرة من صدرهِ ولم يمضِ على ذلك الا قليل حتى ابتدأت فيهِ اعراض السلّ فايقن الاطباء بهلاكهِ العاجل

وفي السنة الرابعة عشرة من عمر البرتو توفي والدهُ لويجي مأسوفاً عليهِ مبكيًّا من جميع من عرفهُ ولو بالاسم . وحزن البرتو جدًّا ولكنهُ لم يقدر هذا الفقدان حق قدرهِ لصغر سنهِ فما عتم ان نسي والديهِ كانهما لم يكونا . وانتقل عمهُ مانولي باهل بيتهِ الى قصرهِ فاقام بهِ وصيًّا على البرتو ورأى هذا في مرغريت فتاةً فتانة

ابهى طلعةً من شمس الضحى وارق لطفًا من نسمات السحر فنسي العالم وما فيهِ واعتقد انهُ انما اوجد الله الكون لهُ ولابنة عمهِ ليرتعا فيهِ ويمرحا

ورأى مانولي حيثما ذهب ان الاجلال والاكرام انما يقدَّمان الى ابن اخيهِ الحديث السن وهو لا ينالهُ شيءٌ من ذلك . وفوق هذا انهُ لا يستطيع التصرُّف في شيءٍ من المال ان لم يستأذن ذلك الولد فكبر عليهِ الامر واوغر صدرهُ شيطان الحسد فاضمر لالبرتو سوءًا ولكنهُ لم يجد الطريقة لاذيتهِ فصبر على احرّ من الجمر وعمد الى نكاية الولد ما امكنهُ . ورأى انعطاف الولد نحو ابنتهِ مرغريت وانهُ لا يصفو عيشهُ الا باجتماعهِ بها فحال بينهما وتهددهما بالعقاب الشديد ان رآهما مجتمعين . فكان هذا المنع والتهديد مما اذكى جمرة الحبّ بين ذينك القلبين الطاهرين وزاد الشغف والهيام في صدريهما فامتنعا في الظاهر عن الاجتماع واظهرا الانقطاع التام وسلوّ احدهما للآخر ولكنهما كانا يترصدان فرص الاجتماع كلما عنت لهما خلسةٌ فيطفئان ما بهما من غليل الوجد . وزاد الحسد والغيرة في قلب ما نولي والد الفتاة ولم يخفَ عليهِ تمكن علائق الحب بين الولدين فضاقت الدنيا في وجههِ ورأى انهُ لاصبر لهُ على الاقامة في منزلٍ ليس هو فيهِ المالك المطلق الحكم فاصبح يومًا وقد حمل زوجتهُ ومرغريت وعاد بهما الى بيتهِ تاركاً البرتو في ايدي خدم القصر وعناية وكيل املاك ابيهِ . وجاء عمل مانولي هذا ضربةً قاضية على سعادة البرتو وصفائهِ لانهُ لم يكن يترقب فراق حبيبتهِ فلما جاءت العربة لتأخذها ووالديها خرج الى الحديقة ووقف محدقًا ببصرهِ وهو كاسف الوجه دامع العينين ولما مرَّت امامهُ مرغريت ورأتهُ على تلك الحالة لم تملك نفسها من البكاء وخشيت ان يلحظ ذلك والدها فاطرقت الى الارض كانها تصلح رباط حذآئها وسكبت دموعًا سخية . ولما ابطأت على تلك الحالة تقدم والدها فرفعها ولما رأى دموعها هاج بهِ الغضب فرفع يدهُ وصفعها على وجهها فسقطت الى بُعدٍ منهُ على الارض وساعدها ذلك على اطلاق عنان ما كتمت من عواطفها فجعلت تنتحبُ من قلب جريح واسرعت والدتها فانهضتها وادخلتها العربة وساروا جميعًا . اما البرتو فكان الحزن يقطع انفاسهُ وهو

يرافق مسير حبيبتهِ بعينهِ الباكية حتى اذا رأى والدها قد ضربها تلك الضربة القاسية تنهد من كبدٍ حرَّى ثم شعر ان ضبابةً كثيفة قد غشيت عينيهِ فسقط الى الارض على بقعةٍ من الحشيش الاخضر ولم يفق من غشيتهِ الى ان مال النهار

وقاسى البرتو في الايام الاول من فراق حبيبتهِ آلامًا لا تطاق فانهُ كان مضطرًّا الى كتمان ما بهِ وهو لا يرى لهُ والدًا شفيقًا يخفف من بلواهُ ولا والدةً حنونًا تمسح دموع حزنهِ ولا اليفًا يبثهُ شكواهُ . ولما غلبهُ الوجد ولم يعد في طاقتهِ الاحتمال عزم على زيارة مرغريت وقام صباح يوم فامر بعربتهِ وتوجه الى بيت عمهِ . فاعترضهُ في الباب خدام المنزل ومنعوا دخولهُ بناءً على اوامر مولاهم فلم يثنهِ ذلك عن عزمهِ ولما كثر اللجاج بينهُ وبين الخدم بلغ الامر عمهُ فجاءَ مسرعًا وبيدهِ عصًا رفعها مهددًا البرتو بشق جمجمتهِ ان هو تجاسر على وضع قدميهِ في ملكهِ ثم طردهُ شاتمًا لاعنًا باقبح الكلام . فعاد البرتو وهو يرى اسهل ما عليهِ الانتحار تخلصًا مما لم يعد صدرهُ يطيق احتمالهُ ولما بلغ منزلهُ دخل غرفتهُ واستخرط في البكاء معطيًا نفسهُ مداها

ومضت عليهِ ايامٌ خطفت لون وجههِ الوردي وخطت على جبهتهِ علامات الفكر والهموم . ولما ضاق بهِ الامر اخذ يفكر في استنباط وسيلةٍ يتمكن بها من الاجتماع بحبيبتهِ سرًّا عن ابيها مهما كلفهُ ذلك من العناء والمشاق وقرّ قرارهُ اخيرًا على الذهاب اليها ليلاً في بيت ابيها من طريقٍ لا يمنعهُ فيها احد ولا يراهُ رقيب. وبعد ما اتمّ تدابيرهُ خرج ذات ليلةٍ من منزلهِ وقد تأبط سلمًا من الحبال وسار مستترًا تحت ظلام الليل الحالك حتى بلغ منزل عمهِ وكان يعرف غرفة مرغريت فاحتال بعد عناءٍ جزيل على ايصال حبالهِ الى نافذتها فعلقت برزازها ولما تحقق تمكنها رقي السلم وبلغ النافذة فقرع عليها بلطف . وكانت مرغريت تجهل قدومهُ فلما شعرت بالحركة ارتعش جسمها ولم تجسر ان تنزل من سريرها لتنادي الخدم ثم خطر لها ان اللص اذا جاءَ للسرقة فهو لا يقرع اشعارًا بقدومهِ واوحى اليها الحب ان ليس في الامر خطرٌ فتشجعت وقامت الى النافذة وقالت بصوتٍ ناعم خفيف من هذا . فاجابها البرتو انا حبيبكِ يا مرغريت . فلم تعلم كيف تفتح النافذة

وقابلت وجه حبيبها ودار بينهما حديث اسرّ من ظلمة الليل واطهر من نسمات الصباح

وكان والد مرغريت قد قضى ليلتهُ في بعض المنتديات وعاد الى بيتهِ في ساعة متأخرة فلما قرب من منزلهِ شعر بشيءٍ لطم قبعتهُ فاوقعها الى الارض فتوقف فجأةً واخذ يتلمس ما حولهُ حتى عثر على الحبال فادرك شيئاً من الامر واسرع فنادى بعض رجال الشحنة وايقظ خدمهُ وهو يعتقد ان لصّاً طرق بيتهُ . و بينما الحبيبان يتمتعان بذلك الاجتماع ما شعرا الا و باب الغرفة يعالج من الخارج فاسرع البرتو في النزول وما بلغ منتصف السلم حتى شعر بوطء اقدام الشحنة وقعقعة اسلحتهم فتوقف هنيهةً ثم اسرع فعاد الى غرفة حبيبتهِ ووثب الى داخلها وقبل ان تدري مقصدهُ هجم الى خزانتها ففتحها وحمل منها علبةً كانت اودعت فيها حليها وارتدّ باسرع من لمح البصر الى النافذة ونزل الى الارض فما بلغها حتى قبضت عليهِ الشرطة والعلبة في يدهِ فلم يشكوا في كونهِ سارقاً واقتادوهُ الى السجن . وكانت الشرائع الطليانية تقضي على السارق باعظم العقوبات فحُكم على البرتو ان يُطاف بهِ في شوارع المدينة ثم يعاد الى دار الحكومة فيجلد خمسين جلدةً ويلقى في السجن سنتين . فسمع البرتو الحكم صامتاً خاضعاً ولم يفه ببنت شفةٍ سوى انهُ تنهد من قلبٍ جريح وخرجت من بين شفتيهِ زفرة تدل على حرارة النار المتأججة في صدرهِ

وكان تأثير تلك الليلة على مرغريت شديداً فاصابها انحراف الزمها الفراش فلم تعلم شيئاً مما جرى على حبيبها الى اليوم الثاني حين قرأت الجريدة اليومية وفيها ذكر الحادثة والحكم الذي سينفذ في الغد فطار رشدها وادركت ان حبيبها قد آثر ان يُتهم بالسرقة وينالهُ العقاب على ان يشين اسمها بشيءٍ . فاظلمت الدنيا في وجهها وقالت كلا لن ينال حبيبي سوء ولا يلحق اسمهُ العار وانا حيةٌ ارزق

وفي صباح الغد اجتمعت الجماهير العديدة الى دار الحكومة لمشاهدة طواف البرتو وجيء بمركبة زرية كدكةٍ مرتفعة تقودها الكلاب وهي المعينة لحمل البرتو في طوافهِ ولما دنت الساعة المعينة اخرجوهُ من سجنهِ ووضعوهُ مقيداً على العربة وهو صامتٌ مطرق الرأس خجلاً يفتت الفؤاد منظرهُ . و بينما الشرطة والجماهير في انتظار الامر

للمسير اذا بالنائب العمومي قد جآء يشق الجموع حتى بلغ المركبة فحل وثاق البرتو وانزلهُ ثم قبلهُ وجعل يردد لهُ عبارات الاعتذار واقتادهُ بيدهِ الى داخل الدار والبرتو لا يدري بمَ يعلل هذا الصنيع حتى اذا بلغ غرفة القضآء رأى حبيبتهُ مرغريت تبتسم لهُ فعلم للحال انها هي جآءت الى النائب واخبرتهُ بالواقع كما حصل . واستطار الخبر بين تلك الجماهير المحتشدة فعادوا متفرقين الى بيوتهم واشغالهم وهم معجبون بشهامة البرتو وشجاعة مرغريت وحبها

اما والد مرغريت فشاهد وسمع وارغى وازبد وتوعد ابنتهُ وحبيبها بالانتقام . ثم استدعاهُ النائب العمومي وجلس الجميع يتحادثون في الامر وسعى القضاة في التوفيق بين البرتو وعمهِ فابى العم ذلك وقال لهم انهُ يفضل ان يخنق ابنتهُ بيدهِ على ان يزوّجها من البرتو . ولما طال الجدال ولم يرَ ذلك الوالد الظالم لهُ مخرجاً من براهين القضاة والحاحاتهم قال ان الاثنين لا يزالان قاصرين وانا القيم عليهما فلن يشاهد بعضهما بعضاً ولن يتبادلا كلمةً ولا يجبرني على تغيير عزمي هذا شيءٌ من قوات السماوت والارض ما دمت حرّ التصرف في ما هو من ولايتي وفي بلادٍ ليس شعبها من العبيد الارقآء .وستبلغ مرغريت الثامنة عشرة من سنيها في العام المقبل و يبلغ البرتو الحادية والعشرين بعد سنتين فمتى ادركا سن الرشد فهما وشأنهما اما قبل ذلك فتحويل عزمي من المحال . وكان قد فكر في نفسهِ انهُ في تلك الاثنآء اما يرغم ابنتهُ على الاقتران بمن يريدهُ هو او يحتال في ابعاد البرتو او اهلاكهِ اذا اقتضى الامر . ولما رأى القضاة اصرارهُ وتصلب رأيهِ قال لهُ النائب العمومي حسناً قلت يا هذا فلندعهما الى ان يبلغا رشدهما ولكنني انذرك من الآن ان الحكومة تراقب حركاتك باعينٍ متيقظة فاذا ظهر منك في حق ابنتك او في حق البرتو شيءٌ من اعمال القساوة اومما يلقنك اياهُ ابليس فاعلم اني انا خصمك والقضآء رقيبك. وانفضت الجلسة على ذلك فنهض مانولي وعاد بابنتهِ ورجع البرتو الى منزلهِ . وتوفق البرتو الى وجود خادمة امينة كانت توصل الرسائل بينهُ و بين مرغريت فلم يشعر بها احد ولم يهتدِ مانولي الى ذلك مع كل اجتهادهِ في ملاحظة الحبيبين والتضييق عليهما

وانقضت السنتان فبلغ البرتو سن كمالهِ واصبح في ذلك النهار كعادتهِ واذا بوكيل املاك اسرتهِ قد دخل عليهِ واخبرهُ انهُ عملاً بارادة ابيهِ وطبقاً لشرائع البلاد و بتصديق عمهِ يسلم اليهِ الاملاك والمقتنيات و يطلق لهُ الحرية التامة في ما يشاء ان يفعل. وكان البرتو مهتماً بغير هذا فالقى نظرةً سانحة على الدفاتر والاوراق التي قدّمها لهُ الوكيل ثم قال لهُ اني اعرفك يا ڤكتور كما عرفك ابي آية المهارة والامانة والذكاء فارجو منك ان تبقى في وظيفتك عندي وتحمل عني عبء هذه الاعمال واني من الآن ازيد في راتبك الفي فرنك سنويّاً. فشكرهُ ڤكتور وعاد الى اعمالهِ وقد تولد في قلبهِ حبّ عظيم لالبرتو وغيرةٌ كبيرة على مصلحتهِ

وما صدق البرتو ان تناصف النهار فارتدى ثيابهُ وخرج من البيت وكلهُ آمال وسار الى بيت عمهِ وهو يدبر في فكرهِ ماذا يفعل وماذا يقول. ولما بلغ القصر استقبلتهُ مرغريت فاخذتهُ الى غرفتها وجلس الاثنان يتشاكيان ويتحادثان و يرسمان القصور التي عزما على بنآئها. ومضت عليهما ساعات لم يشعرا بمرورها فقال البرتو واين والدكِ الآن لاقابلهُ واتقاضاهُ الوعد. قالت قد خرج منذ الصباح ولم يعد ولكن هل تظن انهُ يرضى عن زواجنا الآن. قال لقد اصبحنا الآن قيمين على انفسنا ولا حكم لهُ علينا فان لم يرضَ طوعاً فسأجبرهُ على ذلك فاني كنت احترمهُ قبل ان تحققت انهُ ظالمٌ غشوم. ولم يكد البرتو يتمّ كلامهُ حتى فُتح باب الغرفة بعنفٍ شديد ودخل منهُ والد مرغريت وهيئة الغضب الشديد مرتسمة على وجههِ فقال انت تجبرني يا اثيم. لا ولستُ بمبقيك حيًّا الى ان تفعل. ثم تناول من الحائط سيفاً كان معلقاً للزينة فاستلهُ وهجم على البرتو ونار الانتقام تتقد في عينيهِ. ورأى البرتو تصميم عمهِ على قتلهِ فاخذ كرسيًّا كان بجانبهِ وجعل يتلقى بهِ ضربات عمهِ الشديدة مدافعاً عن نفسهِ ومتوسلاً اليهِ بألطف العبارات وارق الكلام ان ينزع الحقد من قلبهِ و يصفو لهُ صدرهُ وانهُ يعتبرهُ كابيهِ فلم يزدد الرجل الاسخطاً وغضباً وجعل يتابع ضرباتهِ القوية وقد اصابهُ شيء من الجنون فتحطم الكرسي في يدي البرتو وعمد الى غيرهِ وقد ايقن ان لا نجاة لهُ من يدي عمهِ الوحشي. اما مرغريت

فهالها الامر وابتعدت الى زاوية الغرفة حيث جثت وجعلت تبتهل الى الله ان يسكن غضب والدها والى والدها ان يخفف ما بهِ والى حبيبها ان ينجو بنفسهِ . ولما رأى البرتو انهُ يستحيل تسكين جاش عمهِ وان لا بد من مقابلتهِ بالمثل رفع الكرسي بيدٍ من حديد وضرب بها رأس عمهِ فشجهُ وللحال سقط السيف من يدهِ واختلج جسمهُ وسقط الى الارض . ولم يكن البرتو ينتظر هـذه النتيجة السريعة فوقف كالمبهوت ورمى بالكرسي الى الحائط . و بعد نحو خمس دقائق مرّت على تلك الحال فتح الاب عينيهِ وقال بصوتٍ ضعيف سامحني يا البرتو سامحني قبل ان اموت ولك عندي وصاة فاقترب مني لابلغك اياها . واثر ذلك جدًّا في البرتو فهطلت دموعهُ واقترب من عمهِ بغاية التأثر والشفقة والحزن واخذ منديلهُ يلتقط بهِ الدم المتدفق من جرح رأسهِ . واذا بمانولي قد ادخل يدهُ في صدرهِ واخرج منهُ خنجرًا كالبرق الخاطف فاغمدهُ في قلب البرتو وقال بصوتٍ كانهُ من ابالسة الجحيم . خذ هذه الوصية ايها اللعين انك لن تنال مرغريت ولن تحيا بعدي لتتلذذ بعد موتي وسر امامي الى النار الابدية مقرّ ا . . . . . ثم اسكتهُ الموت عن تتمة كلامهِ . وكانت روح البرتو قد فاضت قبل ذلك ببضع ثوانٍ مع الدم الكثير المتدفق من صدرهِ وفمهِ

ولما همدت حركة الجثتان نهضت مرغريت وقد اصابها شيء من مثل الجنون فاقتربت الى حبيبها وجعلت تقبلهُ وترثيـهِ بكلام يذيب الجلمود و بعد ان ودعتهُ بالقبلة الاخيرة نظرت الى والدها وقالت وانت ايها الظالم والجالب الويل والدمار اقبلك ايضاً فقد كنتَ والدي . ولما فعلت ارتعش جسمها ووثبت كانها مدفوعة بقوة غير منظورة الى نافذة الغرفة والقت بنفسها الى الخارج فتحطم رأسها ولم ينتبه اليها الخدم الا بعد ان اصبحت جثةً باردة

وانقرضت بهذه الفاجعة سلالة بادولي فاحيلت جميع مقتنياتها الى املاك الحكومة وانقطع بذلك ذكر اسمى اسرة وانمحى مجـد ذلك البيت العظيم نتيجة حقد الاب الظالم الغشوم